محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة السادسة– موقف الاعتراف وتفكيك ثنائية المركز والهامش في ما بعد الحداثة

– صورة الأنا في مخيلة الأنا:

حينما توعز الأنا الغربية لهذ الفضاء بأن لا مقام له إلا في الحداثة الأوربية و بصفته فقط مستهلكا لمنتوجها الفكري والتقني، لأنه لم يسهم فيها بتاتا، فإنها بذلك تكون قد صنعت لهذا الفضاء صورة الدخيل المغلوب لتأخذ طريقها إلى الوعي الغربي في مقابل صورة الأنا الغالب. و الأدهى من ذلك أن المغلوب قد تبنى الصورة التي شكلتها المخيلة الغربية عنه، فكان أن انقسم إلى مولع بتقليد الغالب في سعيه إلى تحويل سلبية الصورة إلى إيجابية محددة أطرها في الثقافة الغالبة، أو إلى مولع باستلهام تاريخ غلبته ليصنع صورة ذاتية تستمد إيجابيتها من قراءة سلبية لصورة الآخر الغالب.

وعليه فإن إعادة الإعتبار للنموذج الأندلسي يجب أن يرقى هذه الثنائية ويتجاوز الرد على موقفي الاستهجان والطمس، فهو ليس بالنسبة لنا ورقة احتجاج نبرزها أمام الغرب مطالبين إياه بالاعتراف بنا كطرف شارك في تأسيس نهضة تنويرية تعويضا عن عجزنا عن التفاعل الإيجابي مع إحدى تداعيات هذه النهضة (العولمة)، وإنما الذي يعنينا من شأن الإرث الأندلسي إنما هو إحداث رجة على مستوى الوعي العربي – الإسلامي لإخراجه من خندقه الأيديولوجي الذي كرسته نزعة أوربا والغرب نحو السيطرة والقائمة على الفصل بين الأنا/الحداثي و الآخر/الظلامي المتخلف .

علينا أن نتجاوز ثنائية الغالب والمغلوب، الحداثي والظلامي، علينا أن نسهم من جهتنا في تحطيم الصورة التي فرضها علينا التمركز الغربي مثلما يقوم في الضفة الأخرى من البحر المتوسط مثقفون بتكسير هذه الثنائية .

فها هو جاك دريدا يعلن بصدد حديثه عن الحداثة والهوية الأوربية قائلا: " نحن اليوم مستعدون ربما للتسليم بأن حضارتنا الحديثة ومجتمعنا الصناعي لم يولدا من فراغ. لكن هذا الأمر البسيط والبديهي لايزال محاطا في الآن ذاته بأعظم التشويش وبصمت دائم، نتيجة لما يقارب القرنين أو الثلاثة قرون من الإنكار."[1] وهاهو تودوروف يعمد إلى تتبع الهاجس المركزي الذي غذى مسيرة الفكر الأوربي والفرنسي على الخصوص في تعامله مع الآخر في كتابه الذائع الصيت (حن والآخرون)، فيرصد تحول الإثنية المركزية الغربية إلى كونية غير مركزية حينما رمت إلى إثبات عالمية قيمها من خلال التأسيس عقلانيا للمفاضلة التي تعقدها بين قيمها والقيم الأخرى[2].

الأمر الذي كان له الأثر في ظهور شريحة من المثقفين الغربيين تدعو إلى إعادة تعريف الهوية الأوربية – الغربية من خلال إعادة الإعتبار للعامل الثقافي الإسلامي الذي ساهم ذات يوم في بعث فكر تنويري كان المحرك الحقيقي

---

[1] لقاء الرباط مع جاك دريدا، لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، توبقال، الرباط، 1998، ص.54

[2] Todorov, Tzvetan, Nous et les autres, la reflexion française sur la 20 diversité humaine, Seuil, Paris, 1989, p22

لنهضة اليوم، فحينما يعلن Alain De Libéra (ألآن دو ليبيرا) في مجلة Manière de voir ،[3] أن الغرب قد نسي إرثه العربي فإنه يعبر تعبيرا مضادا عن نظرية عجز أصحابها عن إقامة الحجة على صدقيتها لكنها صاحبة السيادة عند الرأي العام في كل من ضفتي المتوسط والتي ترى أن العرب كانوا وما يزالون وسيظلون أجانب عن الغرب، مما يوحي أن الفكر العربي – الإسلامي هو جسم أجنبي أقبل من الخارج وعليه أن يعود من حيث اتى .

ويعتبر الكاتب أن هذا الرفض الواعي لهذا المركب الثقافي قد انغرس في الذهنية الغربية بحيث أضحى إحدى السمات التي تأسست عليها الهوية الأوربية. ويستدل على ذلك بالإقصاء الذي تمارسه المناهج العلمية في حق الإسلام المتوسطي، فجمهور الطلبة يجهل كلية الفلسفة والعلوم العربية في العصر الوسيط. فالفلسفة الغربية المعاصرة لا تفتر تذكر أبناءها بأصولها اليونانية والألمانية ليتحول إقصاء المساهمة العربية إلى هاجس ثقافي يلاحق مروجي فكر الهوية الأوربية. من مثل هذا السيناريو اليوناني – الألماني يدعو الكاتب المفكرين الغربيين والعرب على السواء للتخلص منه لأنه السيناريو الذي يخدم أفكار العنصرية التي يتبناها اليمين المتطرف وهو ذات السيناريوالذي يتكؤ عليه المتطرفون من المسلمين لتعزيز الإنطواء على الذات[4] .

والجديد في الأمر أن هذا الصوت وأمثاله يعملون على الدعوة إلى الحديث عن عناصر عربية–إسلامية مكونة للفكر الأوربي .وهو ما يحملنا على القول إن الهوية الأوربية والغربية على العموم لم تعد تستطيع الاستمرار في تجاهل الإسهام العربي الإسلامي في تشكيلها على مستوى إعادة الاعتبار للإنسان في التاريخ والعقل في الفلسفة . وهو ما يحملنا في ذات الوقت على القول إن الهوية الأوربية الحداثية هي في وجه من وجوهها هويتنا التي استندت إلى خصوصية الإرث الأندلسي .وهذا ليس مدعاة للافتخار والاعتزاز وإنما هو دعوة إلى مراجعة الحداثة الغربية لا كمنتوج أجنبي عنا نتعامل معه من موقف الضحية، وإنما كإفراز لنهضة تنويرية ساهم فيها الفكر الأندلسي في تحرير العقل والمبادرة الإنسانية من الكبت الكنسي .وعليه فإننا نحن المسلمين اليوم نستشعر أن لنا الحق في نقد الحداثة لا كثقافة قادمة من بعيد ولكن كنتاج هوياتي تراكمي معرفي وثقافي شكل العنصر الإسلامي لبنة من لبناته.

فمراجعتنا للحداثة الغربية ليست مراجعة الشرقي للغرب ولا الروحي للمادة وإنما هي مراجعة ذاتية داخلية لثقافة إنسانية مشتركة .من حقنا ونحن جزء منها إيجابي في الماضي وسلبي في الحاضر(مستلهم لمنتجات الحداثة) أن نعيد مراجعتها لا بعدنا أغرابا وإنما منتجون و نتاج للحداثة، فإذا كانت كتابات ابن رشد قد ساهمت في تحرير العقل من الوهم الميتافيزيقي، فإن مثيلاتها اليوم مدعوة لتحرير الإنسان من الوهم العقلاني العلموي في جوهره التكنولوجي الذي أدى إلى انسدادات سياسية و روحية تجلت في أنظمة ايديولوجية عنيفة أفرزت الإستعماروالهولوكوست والقولاق.

---

[3] De Libera, Alain, "Fractures en Méditérranée", in Manière de voir, n°64, Juillet-Août, 2003, p.1O-14
[4] Ibid, p.14

فالحوار داخلي ولنا الحق أن نساهم فيه باعتبارنا شركاء في بعث حضاري تنويري قاده تحرره العنيف من هيمنة الوهم إلى أن يصبح أسير وهم جديد لم تعد انعكاساته تقف عند حدود أوربا وإنما طالت كل بلاد العالم وبشكل فج و غليظ بلدان العالم الإسلامي التي تعيش حالة من التشوه.

ونقدنا للحداثة إنما هي مساهمة منا في إتمام ما بدأه ابن رشد من تحقيق ما بين الحكمة و الشريعة من اتصال في عقد مصالحة بين الإنسان والطبيعة وتأسيس معرفي للثقافات يقوم على اعتبار أن الإنسان مخلوق إلهي تنتفي فيه صفة الموضوع وتتجذر فيه صفة الذات .

فالهوة التي تحاول أن تكرسها العولمة بين الشرق الإسلامي والغرب اللائكي – المسيحي – اليهودي إنما هي هوة مفتعلة تعتمد خلق صورة نمطية للآخر الذي يجب تدميره لتنبعث من رماده صورة الأنا. يجب أن لا تنطلي علينا هذه الخدعة التي ترمي إلى خلق حواجز وفواصل تعزز انطواءنا حول الذات وتحول دون تواصلنا مع الغرب الذي نختزله في صورة العدو اللدود بينما الغرب أغراب، يكفي أن نعزم على التواصل حتى نجد من الغربيين هيئات وأفراد من يتعاطف مع قضايانا وعلى رأسها القضية الفلسطينية ومن هو على استعداد لإقامة جسور حوار وتعارف، بل وإقامة جبهة إنسانية لمقاومة الإنعكاسات السلبية للعولمة على كافة الأصعدة. وإن هذه المقاومة قد تبدو في عرف بعض المثقفين ضربا من أحلام اليقظة، على اعتبار أن العولمة قدر البشرية الجديد الذي لا مناص من الإستسلام له، مرددين مع بعض الأصوات الغربية أغنية نهاية التاريخ والإنسان. الأمر الذي يتطلب منا وقفة مع من يؤمنون بالحتمية الحضارية.